مقاربات اتيقية في مفهوم الضيافة

Harmonious approaches to the concept of hospitality

د. رزاق كريمة*

أستاذة محاضر-ب ،جامعة وهران2 rezak.karima@univ-oran2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/25 تاريخ القبول: 2021/05/18 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

الضيافة هي رؤية لمفهوم العيش معا وإمكانية تحقيقه ، فهو سؤال عن الآخر وعن الذات ... ومسألة البحث عن الاثنين وإمكانية التقارب واللقاء دون أن يكونا في هذا التقارب أو لقاء إنكار الاختلاف والخصوصية ، لذا فإن الضيافة ، بهذا المعنى ، متمردة ضد كل شكل من أشكال الهوية

كلمات مفتاحية: الضيافة، غرابة الإنسان، التواصل والصراع

Abstract:

Hospitality is a vision of the concept of living together and the possibility of achieving it, it is a question about the other and about the self ... and the issue of searching for the two and the possibility of rapprochement and meeting without being in this closeness or meeting the denial of difference and privacy, so hospitality, in this sense, is rebellious against every form Identity

Keywords: Hospitality, Human Weirdness, Communication and Conflict.

*المؤلف المرسل :

1.مقدمة:

يشير كانط إلى أن الضيافة لا تدخل في باب الأعمال الخيرية بل ترتبط بالحق،حق الغريب عند وصوله إلى أراضي دولة أخرى في ألا يعامل بوصفه عدواً[1] ,و في ظل الأزمات التي يشهدها العالم اليوم سيما ما تعرفه المنطقة العربية من أحداث وانقسامات وما انجر عن ذلك من مشاهد تهجير وهجرة قصرية بدا واضحا عدم قدرتنا واستعدادنا على تقبل الغير واستقباله أو استضافته وإن كنا دائما نفهم حديث الضيافة بوصفه حديثا عن المؤاخاة و الاحترام و المجاورة ,و لما لا حديثا عن اللقاء أو السفر إذا أخذناها بمنطلق انزياح الذات و نزوعها للالتقاء مع الآخر والاقتراب منه بشكل يجعلها تحاوره و تقبل به كما هو,غير أن الظرف الحالي يتطلب إعادة استحضار وقراءة لمفهوم الضيافة الذي يبرز ليس كإشكالية فلسفية فحسب بل كقيمة إنسانية مرتبطة بمفهوم المواطنة والحق والمساواة, والانتماء, الضيافة أيضا هي رؤية لمفهوم العيش معا وإمكانية تحققه,باعتبارها سؤالا عن الأخر وعن الذات ..وسؤال البحث عن كليهما وعن إمكانية تقاربهما والتقائهما دون أن يكون في هذا التقارب أو اللقاء نفيا للاختلاف والخصوصية ,فتكون الضيافة، بهذا المعنى متمردة على كل شكل من أشكال الانتماء الهووي لتغدو لقاءا أو تجربة لقاء ,إذ نلتقي بالأخر ولا نكونه على حد تعبير سارتر .

يكون العالم حسب هيدغر "في كل مرة هو ما أتقاسمه مع الغير فعالم الدازين عالم مشترك "[2],وعليه يصعب تصور الحياة اليومية بعيدا عن الآخرين أو الهُم بلغة هيدغر "فهم ليسوا ضيوفا ثقلاء على حدود عالمنا أو هويتنا, بل إنهم جزء من إجابتنا عن السؤال من نحن" [3],فالآخر لا يحيل بالضرورة على ما ليس أنا ,إذ أن "الآخرون هم في أغلب الأحيان أولئك الذين لا نميز ذواتنا عنهم, وهم من نتواجد ضمنهم أيضا ,فالعالم الذي أنتمي إليه من خلال وجودي هو دائما عالم مشترك "[4] لذا فإن كل من يطمع في فصل نفسه فصلا مطلقا عن الغير..كل من يطمع في التحلي بماهية أو هوية تفصله عن بقية الإنسانية هو غير قادر على التعايش "[5] إن هذا الرسم المنمق لصورة العيش معا لا يوضح بشكل كافي سبل هذا التعايش الممكن وهو نفسه ـ أي هيدغر ـ " فصل بين الكينونة اليومية لأنفسنا وبين الآخرين باعتبارهم ضربا من الهُم العمومي الذي لا يقبل بحريتنا, بل يعمل على التكلم باسمنا وعلى إلغائنا في كل مرة "[6] .إن هذا التصنيف الهيدغري لمعنى الآخر بوصفه تهديدا للأنا خلق نوع من الحراك الفلسفي الذي أنتج نقاشات عدة حول إشكالية التعامل والتعايش مع الغير أو الآخر الدخيل ،الغريب والمختلف و تعتبر الضيافة بمفهومها العام أحد أوجه هذا التعايش .

سنتناول في هذه الورقة البحثية الضيافة في بعدها الاجتماعي, وكيف يتحدد الأنا المضياف وبأي معيار يكون ؟ منطلقين من الثقافة العربية ومحاولين رصد تلك التحولات التي طرأت على المفهوم في حد ذاته . ولما كانت استضافة الصديق الأنيس الرفيق المشابه المماثل قد لا تطرح إشكال لأن الصديق

يوفر شروط الضيافة تلقائيا فإن الأمر مختلف نوعا ما مع الغريب الوافد لذا نحاول خلق جو معين تكون فيه الضيافة ممكنة ونحن إذ نفعل ذلك نختبر قدرتنا على استضافة الغريب ذلك المجهول بالنسبة إلينا وحتى المختلف عنا في ثقافتنا وعاداتنا.لذا بدا لي من الأهمية بمكان السؤال عن ما معنى أن يكون المرء مضيافا ؟ وهل الضيافة واجب أخلاقي أم فعل يصدر عن ذات حرة ومستقلة يعكس خطوة مسؤولة تجاه الغير لخلق فضاء ولغة ممكنة للتلاقي معه؟؟ فإذا كان الإنسان هو عدو ما يجهل إلى أي مدى استطاعت الضيافة تعريفنا بالأغيار والمختلفين و الغرباء عنا,ونقلهم من حالة الأجنبي أو العدو المحتمل إلى حالة المضيف , باعتبارها دعوة من دعوات التواصل التي لا تجبر صاحبها على إبراز بطاقة التعريف و الهوية بل وتجعلنا نقبله كما هو لا كما نريده نحن ؟ أي نستضيفه ضمن شروطه وليس العكس ؟.. والأهم من كل هذا هو ما يطرحه مشكل الضيافة اليوم في ضل ما نعيشه جراء تفشي الوباء إذ أصبح الأخر / الضيف غير مرحب به ,وبدلا من مفهوم التقارب الاجتماعي أصبحنا نتكلم عن التباعد الاجتماعي وهذا الأخير هو نفسه مصطلح غريب عنا يخترق مجالنا الفكري والثقافي دون سابق إنذار وبدون دعوى تماما كالزائر الغريب نستضيفه ونحاول التعايش والتأقلم معه لأول مرة ..اليوم تختلف نظرتنا لمفاهيم عديدة قراءة وفهما وحتى ممارسة بما فيها نظرتنا لهذا الإنسان, لذا فقد بات من الضروري البحث عن آليات جديدة باعتبارنا نتعامل مع إنسان من نوع خاص لا يجد خلاصه ولا يجد سلامته ولا يجد صحته إلا من خلال بعده عن الآخر, تأكيدا لمقولة سارتر أن الأخر هو الجحيم, لذا في ظل الظرف الصحي الخاص الذي نعيشه وانتشار الخوف المرتبط بالآخر بوصفه تهديدا للأنا أي قراءة ممكنة يمكن تقديمها للضيافة ؟.

2- مفهوم الضيافة :

تتمثل الضيافة في مخيالنا الجمعي بالكرم وترتبط صوره ومظاهره في ثقافتنا بالكرم الحاتمي (نسبة لحاتم الطائي) الذي نستحضره كلما لعبنا دور المضيف ..وإن كانت اليوم علاقة الضيف بالمضيف تحمل صبغة استثنائية فنجدها أحيانا تتطابق مع الفهم العام للضيافة وأحيانا أخرى تناقضه إن لم يكن على مستوى الفهم فعلى مستوى السلوك. و عن معنى الضيافة فقد جاء في لسان العرب في شرح معنى الضيف بالقول :" ضفت الرجل ضيفا وضيافة وتضيفته :أي نزلت به ضيفا وملت إليه,... وقيل نزلت به وصرت له ضيفا ,وضفته وتضيفته وطلبت منه الضيافة .[7]..والتضَّيف بمعنى الإطعام .." وفي المجمل يحيل معنى الضيافة إلى أمرين الأول هو الإطعام لذلك قيل "ضيفته إذا أطعمته ".[8].والثاني هو الميل بمعنى " هو مضاف إلى كذا أي ممال إليه...والمضاف الملصق بالقوم الممال إليهم وليس منهم وكل ما أميل إلى شيء واسند إليه فقد أضيف " [9]. أما في الفهم الاصطلاحي فلا تفهم الضيافة بعيدا عن معاني الكرم والجود والعطاء من دون مقابل ..ولا أدل على صور الجود والعطاء ما حمله شعر الحطيئة من معاني عميقة تجلت في محاورته لابنه عندما أحس بعجزه عن إكرام ضيفه حيث قال:.

رأى شبحا وسط الظلام فراعه * فلما رأى ضيفا تشمر واهتما

فقال هيا رباه ضيف ولا قرى * بحقك لا تحرمه تاالليلة اللحما

وقال ابنه لما رآه بحيرة * أيا أبت اذبحني ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا * يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

تروى قليلا ثم أحجم برهة * وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما..إلى غاية قوله :

وبات أبوهم من بشاشته أبا * لضيفهم والأم من بشرها أما

وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم * وما غرموا غرما وقد غنموا غنما .

والواقع لا تخلو الحضارات الإنسانية على اختلافها من ممارسات الضيافة و تعلمنا المجتمعات التقليدية الكثير عن الضيافة باعتبارها شريعة وطقسا مقدسا تتجلى فيه أخلاقيات العطاء التي بدونها لا حياة بشرية ممكنة .

3- الضيافة مابين الحق والواجب

تميزت الضيافة بطابع خاص عند العرب جعلها تتجاوز كونها واجبا أخلاقيا أو اجتماعيا لتكون وسيلة نجاة لعابر السبيل أو الغريب الذي نفذت مؤونته أو ظل دربه, سيما إذا أخذنا في الحسبان البيئة العربية الصحراوية الصعبة ومواردها الشحيحة ..لذلك كانت الضيافة تتجاوز مجرد توفير الأكل والمبيت لتحيل لمعنى الأمن والنجاة .إذ نقرأ في الضيافة أيضا معنى الجيرة "و استجار بفلان أي التجأ إليه واستغاث به استضاف فلان بمعنى استجار به فلانا أي سأله أن يؤمنه "..لذا فالوافد أو القادم بمجرد دخوله بيت مضيفه فهو آمن حتى لو دخل لبيت عدوه . .هذا وعدت الضيافة أيضا أحد عناصر السيادة والشرف عند العرب فلا يغدو المرء سيدا بين قومه إلا إذا اجتمعت فيه خصال أهمها السخاء والكرم والإطعام ."

ولم تكن العرب تعد الجود إلا قرى الضيف و إطعام الطعام ولا تعد السخي من لم يكن فيه ذلك

يتضح إذن عامل الضيافة بوصفه أساسيا في تعيين شيخ القبيلة فقد كان اليمن يختارون ذو النسب وقبائل مضر تختار الحكيم ذو الرأي السديد وبنو ربيعة يختارون أقدرهم على الإطعام و أحرصهم على واجب الضيافة. ..هذا ولم يكن العرب ينتظرون قدوم الضيف بل كانوا يسعون لجلب الضيوف بإيقاد

النار في الأماكن المرتفعة, و إبقاء النار موقدة داخل بيوتهم حتى يراها المسافر أو الغريب ,فيستدل بها فينزل ضيفا على صاحبها لذلك كانت هذه النار تعرف بنار القرى أو نار الضيافة .وهي حسب النويري " من أعظم مفاخر العرب كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء ويرفعونها لمن يلتمس القرى ,فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع كان أفخر وهم يتمادحون بها " [10] ..والحقيقة لم تكن النار هي الطريقة الوحيدة التي اعتمد عليها العرب لجلب الضيف بل كانوا يشعلون البخور ذو الريحة العطرة ,ومنهم من كان يوقد النار بالمندلي الرطب [11]فإذا ما انطفأت النار بقي طيب ريحها ليهتدي به من كان مسافرا أو تائها ..كما استخدموا الكلاب أيضا إذ كانت الضيوف تهتدي لمنزل المضيف على نباحها لذا عرف الكلب لدى العرب باسم داعي الضمير أي داعي الغريب والملفت هنا أن دور الكلب لم يكن حماية مالكه أو حراسته وطرد الغريب باعتباره مصدر شر وتهديد بل على العكس تم تدريبه ليكون داعيا للغريب وهاديا له.

إن هذا النوع من الضيافة الذي اشتهرت به العرب أقرب إلى ما وصفه جاك دريدا[12] بالضيافة المطلقة

أو غير المشروطة فهي ليست مشروطة بدعوة خاصة أو استضافة مبرمجة وعليه فهي غير خاضعة لقوانين صاحب الدعوة بل على العكس يكون القادم أو الضيف هو المحرك لفعل الضيافة، وكما كان الضيف في ثقافة العربي يحل دون سابق إنذار أو حتى معرفة كذلك كان الضيف عند دريدا حرا في اختيار وجهته حين يقول علي "ألا أكون مستعدا أو مستعدا لأن أكون غير مستعد للوصول المباغت لأي شخص أخر "[13] فالضيافة حسب دريدا "إما أن تكون الضيافة لا نهائية أو لا تكون. " فأن أفتح بيتي وأعطي للأخر المطلق غير المعروف والمجهول والذي أعطيته مكانا والذي أدعه يأتي ويصل فيمتلك مكانا في المكان الذي أمنحه إياه من غير أن أطلب منه ولا حتى اسمه " ولا أدل على ذلك من أن الضيف لا يسأل عن هويته أو اسمه أو دينه ولا حتى وجهته.

تفهم الضيافة إذن كشكل من أشكال استقبال الغريب واحتوائه ويكفي أننا نطلق اسم الضيف على الغريب وهذا يعني استعدادا مبدئيا لتقبله بحيث لا يغدو وصفه كغريب أمرا مقلقا بما تمنحه الضيافة من امتيازات يمكن أن نصطلح عليها اسم حقوق فحتى في العرف الاجتماعي يكون الضيف في حمى المضيف فما يجري على الضيف يجري على مضيفه وبموجب ذلك كان التقصير في واجب الضيف أو إيذائه يوازي الاعتداء على الشرف ووصمة عار على جبين المعتدي لا تنمحي ..

إن هذا العطاء الممنوح للضيف يجعل منه سيدا وصاحب حق عند مضيفه كما يمكن أن يفهم هذا الترحيب كمحاولة لسحر الغريب في جو الضيافة وإغراقه بالجود سدا لأي منفذ يمكن أن يعبر منها الطمع. يحيل منطق الضيافة هنا إلى مسألة مهمة هي الثقة الممنوحة للغريب وهي ثقة لا مشروطة نقرأ فيها قبولا للغير وتحمل المسؤولية تجاهه واعترافا به مع احترام اختلافه ,وفي ذلك تقريب الإنسان

للإنسان وتوطيد لعلاقة أخوية قائمة على المشاركة الوجدانية وهذا عامل مهم في بناء علاقات إنسانية مع الآخرين

4- الضيافة وأنسنة الغريب

تقتضي الضيافة تعاملا مع الغريب الذي لا نعرفه ,ومع ذلك نكون بشكل ما مسؤولين عنه فتقديم المعونة له هو شكل من أشكال الاعتراف به بوصفه طرفا تتأسس عليه العلاقات الإنسانية.وهذه النقطة تحيلنا إلى مسألة مهمة داخل مشهد الضيافة في البيئة العربية وهي الخيمة المفتوحة لا وجود لأبواب موصدة ,فالباب المفتوح هو دعوة وهو نداء للغير في حين أن "غلق الباب هو رفض الضيافة وإيذان بالحرب والحساسبية المتنافرة"[14] وهذا تبيان أن الأنا العربية لم تكن أنا منغلقة على ذاتها ,إذ نجدها تسعى من خلال الضيافة على إزالة الحواجز مع الضيف بوصفه أخرا ,غريبا أو دخيلا,ليغدوا قريبا أو أخا وهذا ما يجعل صاحب الدعوة محبوبا, ومصدر اطمئنان عند للآخر أيضا.وعلى النقيض من ذلك يكون الامتناع عن الضيافة والإطعام مدعاة للخوف والقلق والتوجس, ولا أدل من ذلك رد فعل النبي إبراهيم عليه السلام ,في تعامله مع ضيفه إذ جاء في قوله تعالى: "هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين 24 إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون 25 فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين 26 فقربه إليهم فقال ألا تأكلون 27 فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم 28 " سورة الذاريات.

ضيف إبراهيم تشير إلى ضيوفه وقد كانوا من الملائكة وهم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام ,وقد نزلوا عنده في هيئة شبان لهم من الحسن بقدر ما لهم من المهابة, وقد جاء في تفسير قوله عز وجل ضيف إبراهيم المكرمين أن إبراهيم ارصد لهم الكرامة أي أكرمهم بذبح عجل و تهيئته وتقديمه لهم..أما قوله "فأوجس منهم خيفة" وهو نفسه ما تقدم في سورة هود الآية 70 في قوله تعالى " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط "صدق الله العظيم.

نفهم من هذه الآيتين أن إبراهيم عليه السلام خاف أن يراد به سوء أو أذى لأنهم لم يقربوا طعامه, فقد كان في عرفهم أن من امتنع عن أكل طعام مضيفه فقد أراد به شرا ...من هنا كانت المبادرة بتناول الطعام دلالة على حسن النية ..والواقع يكشف طقس الضيافة عن سحر غريب خلف عملية الإطعام إذ يمكن أن تفهم الذبيحة أو الأضحية المقدمة للضيف وكأنها وسيلة تطهير للغريب القادم من أي شر محتمل ,فيكون بذلك الإطعام أو مشاركة الطعام بعدا رمزيا باعتباره وسيطا في عملية تحول الخوف والحذر والتوجس من الغريب إلى أخوة واطمئنان..هكذا تعمل الضيافة على أنسنة علاقتنا بالغريب وربما كان في طقس الكرم لجم للعنف واستئصال للكراهية كما تكشف عن نوع من المشاركة

والتعاطف مع الآخرين الذي يضفي على السلوك الإنساني صبغة أخلاقية ..وفي سياق قريب من هذا يذكر التنوخي في كتابه المستجاد من فعلات الاجواد حكاية معن بن زائدة حينما أراد أن يجهز على بعض الأسرى فرجوه أن لا يفعل ذلك إلا بعد إطعامهم ..فأجاب مطلبهم وأمر لهم بشيء من الطعام, وبعد أن فرغوا من أكلهم قام واحد منهم وقال أيها الأمير قد كنا أسراك ونحن الآن ضيوفك, فانظر ما تصنع بأضيافك ؟

فما كان منه إلا أن عفا عنهم وخلى سبيلهم. فقال له بعض جنده لا ندري أيها الأمير أي يوميك أسر وأشرف أيوم ظفرك أم يوم عفوك [15] ,وقد نستغرب سلوكه إذ كيف يعفو عنهم فقط لأنه أطعمهم وكيف غير الطعام مسار الأسرى من حد السيف إلى النجاة فكان في الإطعام حياة ..غير أن السؤال الجدير بالاهتمام لماذا أضحت الضيافة غريبة عن مجتمعاتنا اليوم ؟.

5-الضيافة بين قطبي التواصل والصراع

تطلب تشكل المجتمع الإنساني تكاثف وتظافر جهود كل الأفراد على اختلافهم حفاظا على وجودهم وتحقيقا لمصالحهم المشتركة وسواء فسرنا ذلك بمبدأ علم الاجتماع القائم على مدنية الطبع الإنساني

أو بالمبدأ المناقض له المؤمن بأنانية ووحشية هذا الطبع الذي يجعل من الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان لا تحركه سوى المصلحة الشخصية وسواء صح المبدأ الأول أو الثاني فإن النتيجة الحتمية هي تكافل الأفراد في توفير وتحصيل مستلزمات الحياة بما هي مسؤولية مشتركة ,يتعزز ذلك ببعض المبادئ كالحق سيما الإقرار بحقوق الغير والاحترام وغيرها من المبادئ التي من شأنها أن تضع حدا للسلوكات الأنانية والعدوانية وكل ما قد ينتج عنها. يمكن لمس ذلك في المجتمعات المصغرة إلا أنه بمجرد الابتعاد عن العشيرة والقبيلة لن تعود الحياة الاجتماعية بتلك البساطة الظاهرة .. وهذا ما يجعل مبدأ الضيافة سيما بمعناها المطلق و اللامشروط أشبه بمغامرة غير أمنة النتائج بما قد تحمله من مخاطر على صاحب البيت فدريدا نفسه يشير إلى استحالة قيام مثل هذا النوع من الضيافة لارتباطها بمجموعة من المعطيات السياسية والقانونية أيضا ,استحالة يراها دريدا مرهونة بالظرف الحالي لما له من خصوصية ,وهذا يعني أن تطور المجتمعات خلف صراعات على مستويات عدة ,فتسارع الأحداث سياسيا وتوالي الأزمات الاقتصادية تجلت بشكل واضح في بنية العلاقات الاجتماعية والإنسانية.,فانتشار الحرب وحالة اللاأمن, العنف ,الإرهاب, فوبيا الآخر, القتل ,الانتقام..الكره ,اللامبالاة وغيرها من السلوكات الهمجية التي عرت إنسانيتنا ,وجعلت العالم أمام أزمة أخلاقية حقيقية انعكست بشكل واضح على سلوكات الأفراد ,التي تنافي حقيقة الإنسان وجوهره بوصفه ذات عاقلة. وهاهي حياتنا تكشف عن فراغ أكسيولوجي,تجلى باستفحال الشر على حساب الخير,انعدام الضمير والمسؤولية غياب شبه كلي لمفاهيم جوهرية في بنية العلاقات الإنسانية كالحق

والواجب والاحترام والكرامة ...لأجل ذلك ساد النفور والاحتراز وتعطل الاجتماع وتعطلت معه أيضا أخلاق الضيافة .وبدلا أن نقف في صف المهاجر واللاجئ والمهاجر وننحاز لحقه في العيش الكريم ,أصبحنا لا نرى فيهم سوى كائنات متطفلة تهدد أمن واستقرار الجماعة .

وكأننا كذوات أو كجماعة نشكل كلا موحدا خالي من الانقسامات والتناقضات والاختلافات، هذا ما نفته جوليا كرستيفا حينما اعتبرت هذه الوحدة ليست أكثر من مظهر عام شكلي وأن الغريب يسكننا على نحو غريب , وإن صح أن كل ذات حاملة لغريبها , ما المانع في أن تحمل الجماعة غربائها أيضا ؟ ..

وها هو التوحيدي يتعمق في معنى الغريب بقوله " الغريب من واصله الحبيب بل الغريب من تغافل عنه الرقيب بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نودي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب، ...الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ,الغريب من إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف ". ..ويمكن أن ندرج في نفس السياق موقف سقراط الذي نعرف جميعا أنه كان مواطنا آثينيا ومع ذلك أمام المحكمة ويقول "إنني غريب بشكل مطلق عن طريقة كلامكم هنا". لقد طالب في مرافعته القضاة بأن "يتركوا له حرية استعمال أسلوبه وطرق كلامه"[16] مما يؤكد أن لا اللغة المختلفة ولا الثقافة المتباينة ولا حتى الهوية المغايرة أو الإنتماء القومي هو من يحدد معنى الغريب ,والأهم من كل هذا هو أن الغير/ الآخر موجود رغما عنا و بدلا من أن نوجه لوجوده اللوم و الاتهام فل نعطي معنى إيجابيا لوجوده .

زيادة على ذلك تتمظهر الضيافة اليوم في صور أخرى فمع تطور الحياة الاجتماعية وتعقيداتها أخضعت الضيافة محمولة على معنيين إيجابا وسلبا لم تبقى الضيافة محصورة في المعنى الأحادي القاضي باستقبال الضيف وقبوله بل أصبحنا أمام ضيافة ملزمة وأخرى غير ملزمة والأمر خاضع لطبيعة العوامل الاقتصادية والمعايير الخلقية التي تؤطر سلوكاتنا كأفراد داخل حيز جغرافي دون غيره..فاليوم مع توفر الفنادق والنزل لا يجد المرء نفسه ملزما بالنزول عند البعض من الأقارب حفاظا على شيء من الحرية والاستقلالية وحتى لا يصنف في خانة الضيف المتطفل ..وهذا الفهم ساعد على تحول معنى الضيافة من ملزمة إلى غير ملزمة يضاف إلى ما سبق مسألة لا تقل أهمية وهي أنه بمجرد استقبالنا للضيف ندخله في شروط ملزمة للضيافة بحيث يوضع في غرفة الاستقبال ..لا يمر إلا باستئذان وهو هنا أقرب ما يكون للنزيل منه إلى الضيف لعامل التقييد المشروط ....وهذا الشكل من التعامل لا يعمل سوى على نفي حرية الضيف واختزالها كما أنها يختبر مدى صدق نوايانا تجاه من دعونا وهذه الظروف في تغيير شكل الضيافة ونمطها فرضها الهيكل المعماري الحديث للمدينة ولذلك صرنا كغرباء نتزاور كنزلاء لا كضيوف [17] ,وعليه فشتان بين ضيافة تؤنسن العلاقة مع الغريب وضيافة تزيد الغريب غربة..

6- غربة الضيافة

يختلف الأنا عن الآخر بقدر ما يتشابه ويتساوى معه في الجوهر أو في الطبيعة البشرية, و على هذا الأساس فإن الموقف السليم لعلاقة الأنا بالغير أو الغريب هو موقف التآخي و المودة المؤسس على الحوار و الاحترام، والتسامح أولا لأنه آنا آخر إنه إنسان كائن بشري وثانيا لأن الإنسان ناقص بالحاجة تام بالطلب[18] فالإنسانية تسعى لأن تكون تامة الصورة غير ناقصة أو مبتورة ، من هنا وجب علينا أن تعوض ما فيها من نقائص بالاستلهام من الآخر متى دعت الحاجة إلى ذلك ، لأنه فقط في اللحظة التي يتم فيها ذلك أي يتم فيها الكشف عن توحد قيم إنسانية كونية ، تتوقف حينئذ الاختلافات عن كونها موانع و حواجز تحول دون[19] التواصل بين البشر لتصبح أداة و وسيلة لهذا التواصل .و لأن الهويات التي تشكل أكبر خطر على الإطلاق، هي تلك التي لا تكون و لا تتحقق إلا على حساب هويات الغير، وجب أن تكون هويتي متصالحة، مثقفة،أو متوافقة ، مع هويات الآخرين، و أن لا يتأسس وجودها على رفض الغير ، أو التهديد بإلغائه , ذلك ما تكفله الضيافة وذلك ما نأمل أن نكونه ...

و لكن كيف يغدو هذا التعايش ممكننا بين فئات عديدة و قوميات متعددة لم تعرف سوى الحروب والمؤامرات والهوس بالتدمير والسيطرة ..عن أي تعايش بين بشر" ليست حالة الطبيعة لديهم سوى حالة حرب إن لم تكن مفتوحة فهي على الأقل مستعدة دوما للاشتعال" بحسب تعبير كانط

حروب الإنسان لم تنتهي بل اتخذت أشكال أخرى أصبحت أكثر قوة وتطورا بدليل ما يواجهه العالم جراء فيروس كورونا والذي صنفه المحللون بأنه حرب بيولوجية غير متعادلة وغير متكافئة لن يكون البقاء فيها إلا للأقوى وللأكثر قدرة على التغيير والتأقلم . حرب زعزعت إيماننا بمبدأ الضيافة الكونية من خلال عزل الدول جغرافيا فالحق في السفر والتنقل هو حق من حقوق الإنسان التي تبقى ناقصة ومبتورة ومفرغة من طابعا الإنساني ..منع السفر والتنقل حاصرنا كأفراد بل وعزلنا عن الناس وحتى القريبين منا,فمن جهة إذا تكلمنا عن ضيافة الأخر الغريب البعيد فإن الوباء المنتشر وافتراض نظرية المؤامرة قدم يهدم مفهوم الضيافة ويجعلها محل شك وتساؤل وهذا من شانه أن يعرقل مسالة العيش معا.ويجعل نتساءل عن مدى استعداد هذا الآخر وجديته في التواصل معنا ؟.

أما على مستوى علاقاتنا كأفراد بعد أن كانت الضيافة تعنى بالترحيب بالضيف وإكرامه أصبحت هي نفسها مفهوما غريبا في مجتمع تغلبت عليه النزعة الفردية والأنانية ,حديث الضيافة اليوم له خصوصية لأننا نتحدث عن الضيافة في ظروف غير مضيافة ..بداية الكمامة وحدت اختلافنا الشكلي وجعلتنا على هيئة واحدة ..فالوجوه بالكمامة هي وجوه متشابهة لا اختلاف فيها .. اليوم ارتداء الكمامة هو حاجز جديد يضاف إلى جملة الحواجز أو العوائق التي لا تنمي فينا القدرة أو القابلية للضيافة. لأن حسن الضيافة يتجلى مبدئيا في مبادرة الضيف بالمزاح أو الابتسامة أو الضحك وكل ما له صلة بحسن

الاستقبال وهذه المسألة باتت صعبة الآن لسببين أولا لوجود الكمامة التي تغطى الوجه وتمنع انكشافه وظهوره بشكل واضح. وثانيا مسألة التباعد الإجباري ووجود مسافة لا بد من احترامها في تعاملي مع الأخر غريبا كان أو قريبا.

وفي الحقيقة للوجه دلالة فلسفية عميقة فهو بتعبير ليفيناس خاصية إنسانية بامتياز..ومن خلال هذا الوجه يتجلى الآخر للأنا ,عملية التجلي هذه تتأسس بشكل أولي على النظرة وهي طبعا تتعالى على الرؤية الحسية المادية لتشمل معنى التدقيق والتمعن والإبصار فليس مهما ـ والتعبير لهيدغر:" أن نرى بل الأهم أن نبصر في ما نراه " لذا فالوجه ليس تلك التقاسيم البارزة التي تحدد العينين والفم والأنف ،بقدر ما يحيل إلى الوجه العاري والمكشوف,والمقروء أيضا .يرفض ليفيناس أن يكون الإطار الحسي أو مجال الرؤية هو أقصى ما يعبر عنه الوجه فالنظرة حسبه ترمز إلى أبعد ما يمكن للعين أن تراه, رؤية الوجه تعني كشف لما ورائه بما هي انفتاح على الآخر بإمكاناته المختلفة ...الوجه إذن مجال للتخاطب بما هو كلام وتعبير إنه ـ أي الوجه ـ "من يجعل الخطاب ممكنا وهو من يبدأ "[20].وعليه النظرة ليست تحريك الأعين تجاه موضوع ما وحصره ضمن أبعاد معينة ,بقدر ماهي ملكة وقدرة ذهنية تؤهل الفرد لقراءة الوضع الذي هو فيه والتعامل معه بشكل سليم أي ضمان عملية التواصل بين الأنا والأخر .الوجه يتكلم وصوته مسموع حتى في أشد أوقاته صمتا لذا كان لزاما انكشاف الوجه وصفائه ليكون أكثر سماحة وألفة وتلك

بداية الترحيب بالآخر باعتباره ضيفا .يظهر أمام الأنا كوجه إنساني يعمل على تقريب الآخر والتعرف عليه بعيدا عن الموقف العدواني والأناني والنظرة الدونية تجاهه ,فالأنا يستحيل أن يبقى وحيدا في مجتمعه أو في ذاتيته "مادامت الاجتماعية في العالم هي التواصل أو المشاركة ....فالأشخاص ليسوا الواحد أمام الآخر بل هم بعضهم لبعض .."[21].فإذا كانت علاقة الوجه – وجه حسب ليفيناس بما توحي إليه من تلاقي وقبول وحوار , بمقدورها أن تزيل أي لبس أو سوء فهم بين الذات والغير فإن الكمامة تحيل دون معرفتي وقراءتي لهذا الوجه المخفي المعالم كونها تعمل على تشويه لحظة التلاقي .

لذا الوجه بالكمامة هو غير الوجه من غير كمامة ,كون هذه الأخيرة توحي بأن هناك خوفا ما أو احترازا من شيء ما قادم من الأخر..لذا سيكون ارتداء الكمامة هو طوق نجاة بالنسبة للأنا في مقابل المرض

أو الهلاك الذي يكون مصدره هو الوافد أو القادم إلينا ,الوجه بالكمامة هو وجه غير مضياف هو وجه يجد صعوبة في التعرف على الآخر ,وجه من غير ملامح.. وسواء عملت الكمامة على تغطية الوجه أم عرته على حقيقته فإن الثابت أنها عززت شعور الفردانية ,فينا عزلتنا عما هو خارجي وجعلتنا نتقوقع داخل أنيتنا من جديد, إن هذا الإنكباب على الذات ليس سهلا وبسيطا كما يُخَيَّل إلينا..وإنها لقوة كبيرة تلك التي تؤهلنا للبقاء داخل ذاتنا ودون التقاء الآخر لوقت طويل فهل يمكن أن يجرنا هذا إلى

تغيير طقس الضيافة ؟؟؟ وإن تم ذلك هل ستغدو الضيافة فعلا ضيافة؟ وأي اسم ستحمله الضيافة بعد ذلك ؟؟ أم أن التباس مفهوم الضيافة راجع لالتباس مفهوم الإنسان نفسه الذي غابت حقيقته عن أعيننا.

المصادر والمراجع:

[1] -Vers la paixperpétuelle traduction par Jean-François Poirier et Françoise Proust, Flammarion 1991, 93-94

[2] Martin Heidegger -**Etre et temps** – trad de l'allemend Francois Vezin- éditions gallimard .nrf paris 1986- pp 160-161

[3]- فتحي المسكيني - الهجرة إلى الإنسانية - ط1 – منشورات الإختلاف – ص 40

[4] Martin Heidegger -Etre et temps -p150

[5] - فتحي المسكيني - الهجرة إلى الإنسانية - مرجع سابق – ص40

[6] - نفسه – ص 41

[7] -محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور - لسان العرب – ط 3 – حرف الضاد – جزء9 - دار صادر بيروت 1414هـ - ص 78

[8] - نفسه الصفحة نفسها

[9] - نفسه

[10] - أنظر نيران العرب – معجم الأساطير – مدونة لمحمد فرج السيد الرديني

[11] - نفسه

[9]- لقد كان حديث دريدا عن الضيافة حديثا عن اللقاء بالأخر وعن إمكانية الإنفتاح عليه .في محاورة السفسطائي لافلاطون يناقش دريدا فكرة الغريب والموقف السليم منه فقد عكست محاورة افلاطون معنى تقبل للأخر فقد كان الغريب هو ذلك السفسطائي الذي سر سقراط بلقائه مانحا اياه دوره أي دور المتكلم واكتفى هو بالإنصات رغبة بسماع اراء الاجنبي وافكاره التي ستكون محركة ومولدة لطروحات وإشكاليات فلسفية ما فعله سقراط حسب دريدا هو إفساح المكان للأخر وتقبله بوصفه ثقافة مغايرة ومختلفة لا تشكل تهديدا بالضرورة .لذا لا نلمس في صمت سقراط أمرا عبثيا بل محاولة إفهامنا بطريقة ما أن الحيز الذي نتموقع داخله والمنبر الذي نتكلم منه يمكن إتاحته للغريب وذلك ما تمنحه عملية الضيافة

[14] -Jack Derrida – a dieu a Emmanuel Levinas ;p92

[15] - المحسن بن أبي القاسم التنوخي – المستجاد من فعلات الاجواد - تحقيق أحمد فريد المزيدي –دار الكتب العلمية بيروت لبنان – 2005 - ص 105

[16] - Henri Joly, La question des étrangers, Vrain 1992, 14

[14] - انظر بن شرقي بن مزيان – الفلسفة والفضاء العمومي – التحديد والتوضيح – ط1 - دار الغرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر – 2007 ص 62

[18] - أبي حيان التوحيدي ـ المقابسات ـ تحقيق حسن السندوسي – ط 2- دار سعاد الصباح – 1992 - ص473

[19]

[20] -Emmanuel Levinas – Ethique et infini –Livre de poche librairie arthene Fayard et radrie –France – 1982 - p 82

21 - Emmanuel Levinas – De L'existence a L'existant - librairie– philosophique- J .Vrin 2eme edition - paris 1993 - pp 61.62